

علم تراجم الرواة والأعلام أهميته وفائدته

إبراهيم بن حماد السلطان الرئيس

المقدمة:

الحمد لله الذي خلق الناس من ذكر وأنثى وجعلهم شعوباً وقبائل ليتعارفوا، وهو الذي جعل الإنسان خليفة في الأرض واستعمره فيها، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. أما بعد:

فإن الله تعالى خلق الخلق لعمارة الأرض بطاعته، وإدارتها وفق إرادته وأمره سبحانه، وقد مرّ بهذه الحياة أجيال وأجيال، واندرس ذكر أكثرهم، بل لم يبق ممن له ذكر منهم إلا قلة لا تكاد تذكر مقابل من نسي، وهؤلاء الأعلام الذين حفروا لهم في ذاكرة التاريخ اسماً وأوجدوا لأنفسهم مكاناً، وأسسوا لهم بين العالمين ذكراً؛ هم موضوع علم التراجم، وهم هدف الدراسات حوله على اختلاف مشاربهم وتنوع مقاصدهم وتباين أثرهم وتأثيرهم، وافتراق حالهم عند ذكرهم، ما بين مذكور بخير وصلاح ومُتَّبِع ذكره بالثناء والدعاء، أو مذكور بشرّ وضرّ ومُتَّبِع ذكره بالنقمة والدعاء عليه، و قد أردت أن أجمع بحثاً يتناول هذا العلم بالدراسة والنظر، ويعرض لذكر أهمية هذا العلم وثمراته وسبل الوصول للتحقيق فيه، ووسمته بعنوان رأيته له مناسباً وبه موثقاً هو: علم تراجم الرواة والأعلام، أهميته وفائدته.

وقد حرصت على أن لا أسهب في مباحث هذا الموضوع، حتى لا يكون مملاً، كما راعيت عدم البتر والاختصار الشديد لثلا يكون مخللاً. وإني أسأل الله جل وعلا أن ينفع بهذا البحث من كتبه ومن قرأه، وأسأله سبحانه وتعالى أن يجعله مساهمة مباركة في خدمة سنّة النبي الكريم صلى الله عليه وسلم، كما آمل من كل من قرأه وتأمّله أن لا يبخل عليّ بما لديه من ملحوظات ومرثيات، وما

يراه من مقترحات وتوجيهات، فإن المسلم ضعيف بنفسه، قوي بإخوانه، و "رحم الله امرأً أهدى إليَّ عيوبي" (١). وقد بذلت فيما عملت جهدي، واستغرقت وسعي، وحرصت على تحري الإصابة حسب الجهد والطاقة، فما كان فيه من صواب فمن توفيق الله عز وجلّ وتسديده، وما كان فيه من زلل أو تقصير فمن نفسي والشيطان، والله ورسوله منه براء، وأسأل الله عفوه ومغفرته. وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المبحث الأول: علم التراجم: المراد به، ونشأته:

لا شك أن علم التراجم علمٌ مرتبط ارتباطاً قوياً بعلم التاريخ، ولعل تسمية بعض المتقدمين لمصنفاتهم في علم الرجال بالتاريخ دليل على ذلك؛ كما كان من الإمام البخاري في تواريخه، وقبله الليث بن سعد وعبدالله بن المبارك والوليد بن مسلم كما ذكر عنه ذلك الذهبي رحمه الله (٢)، فكل هؤلاء صنفوا كتباً باسم التاريخ؛ وموضوعها التراجم والسير، يقول الجبرتي رحمه الله (٣): "وفن التاريخ علم تدرج فيه علوم كثيرة؛ لولاه ما ثبتت أصولها، ولا تشعبت فروعها؛ منها طبقات القراء والمفسرين والمحدثين وسير الصحابة والتابعين، وطبقات المجتهدين وطبقات النحاة والحكام والأطباء، وأخبار الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وأخبار المغازي وحكايات الصالحين، ومسامرة الملوك من القصص والأخبار والمواعظ والعبير والأمثال، وغرائب الأقاليم وعجائب البلدان، ومنها كتب المحاضرات ومفاكهة الخلفاء وسلوان المطاع ومحاضرات الراغب.

أما علم التراجم فلعل أقرب تعريف له بشكله العام أن يعرف بأنه العلم الذي يُعنى ببيان سير الأعلام عامة وذكر حياتهم الشخصية، ومواقفهم وأثرهم في الحياة وتأثيرهم.

أما تاريخ نشأة هذا العلم فلا بد أن نعرف أولاً بأن الأمم منذ القدم تُعنى بتخليد ذكر كبرائها وأعيانها، وما قصة أولئك الأعلام الذين كانوا مثلاً للصالح والاستقامة، والذين ذكر الله خبرهم مع أقوامهم في القرآن العظيم، وما كان من وضع تماثيل لهم ليتذكروهم بها إلا صورة من صور علم

١- ورد ذلك عن الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه، عند الدارمي: ١٦٨/١ برقم ٦٥٤. انظر: عبدالله بن عبدالرحمن أبي محمد الدارمي، السنن، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٠٧هـ، الطبعة: الأولى، تحقيق: فواز أحمد زمرلي، خالد السبع العلمي.

٢- أبو عبدالله الذهبي: تذكرة الحفاظ، تحقيق: عبدالرحمن العلمي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ٢٧٥١.

٣- عبد الرحمن بن حسن الجبرتي: تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار، دار الجيل، بيروت، ١٠/١.

التراجم، يقول الله تعالى: ﴿ قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالَهُ وَوَلَدَهُ إِلَّا خَسَارًا وَمَكَرُوا مَكْرًا كَبِيرًا وَقَالُوا وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴾ (سورة نوح، الآيات: ٢١-٢٤).

روى الإمام البخاري رحمه الله في صحيحه^(٤) عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: "صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعد، أما ود فكانت لكلب بدومة الجندل، وأما سواع كانت لهذيل، وأما يغوث فكانت لمراد ثم لبني غطيف بالجوف عند سبأ، وأما يعوق فكانت لهمدان، وأما نسر فكانت لحمير لآل ذي الكلاع، وكانوا أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصاباً وسموها بأسمائهم، ففعلوا فلم تُعبد حتى إذا هلك أولئك وتنسخ العلم عُبدت".

ونقل القرطبي^(٥): عن محمد بن كعب ومحمد بن قيس رحمهما الله تعالى قالوا: كانوا قوما صالحين بين آدم ونوح، وكان لهم تبع يقتدون بهم، فلما ماتوا زين لهم إبليس أن يصوروا صورهم ليتذكروا بها اجتهادهم، ولبيتسلوا بالنظر إليها؛ فصوروهم. فلما ماتوا هم وجاء آخرون قالوا: ليت شعرنا هذه الصور ما كان آباؤنا يصنعون بها؟ فجاءهم الشيطان فقال: كان آباؤكم يعبدونها فترحمهم وتسقيهم المطر. فعبدها فابتدئ عبادة الأوثان من ذلك الوقت.

وصورة أخرى نحو من هذه، من صور تخليد الذكر لبعض الأعلام؛ وردت في ما رواه الإمامان البخاري ومسلم في صحيحيهما^(٦) من حديث عائشة أم المؤمنين أن أم حبيبة وأم سلمة ذكرتا كنيسة رأينها بالحبشة فيها تصاوير فذكرتا للنبي صلى الله عليه وسلم، قال: "إن أولئك إذا كان فيهم الرجل

٤- صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب ﴿وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ﴾، ٩٧١، رقم: ٤٩٢٠.

٥- أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: أحمد عبد العليم البردوني، دار الشعب، القاهرة، ط/٢، ١٣٧٢هـ: ٣٠٨/١٨.

٦- صحيح الإمام البخاري، كتاب الصلاة، باب هل تنبش قبور مشركي الجاهلية ويتخذ مكانها مساجد، (١٠٤)، رقم (٤٢٧)، وباب الصلاة في البيعة، (١٠٥)، رقم (٤٣٤) وكتاب الجنائز، باب بناء المسجد على القبر، (١٣٣٨)، رقم (١٣٤١). وصحيح مسلم، كتاب المساجد، باب النهي عن بناء المساجد على القبور، واتخاذ الصور فيها.. (٢١٣)، رقم (٥٢٨).

الصالح فمات، بنوا على قبره مسجداً وصوروا فيه تلك الصور، فأولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة”.

ومع اختلافنا مع ما كان من عمل أولئك الأقوام في هذا النوع من التعظيم والذكر؛ إلا أنا نقول بأن هذه الوقفة فيها دلالة قوية على قدم هذا النوع من التخليد والجمع والتعريف بالأعلام والأعيان. وكتاب الله تعالى؛ القرآن العظيم مليء بذكر أخبار أعلام صالحين، وآخرين من الطغاة والمفسدين.

أما علم التراجم الذي اعتنى به أهل الإسلام وأهل الحديث خاصة فهو علم كانت نشأته منذ عهد النبي صلى الله عليه وسلم حينما أنزل الله تعالى قرآناً يتلى إلى يوم القيامة وفيه التنبيه على ضرورة معرفة الناقل للأنبياء والأخبار والتأكد من معرفة صلاحه واستقامته وتدينه، كما في قول الله جلّ وعلا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصِبْحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ (سورة الحجرات، الآية: ٦).

ثم بعد عهد النبي صلى الله عليه وسلم بزمان يسير، وحينما أحس علماء الإسلام بما قد يلحق المصدر الثاني من مصادر التشريع في الإسلام من الدس والتلفيق والكذب والزور؛ نشأ هذا العلم كما قال محمد بن سيرين حينما وقعت الفتنة؛ وسواء كان المراد بالفتنة هنا مقتل الخليفة الراشد عثمان رضي الله عنه أم كان المراد بها فتنة المختار بن أبي عبيد الثقفي، الذي قتل على يد مصعب بن الزبير سنة ٧٦هـ، فهما متقاربتان في الزمان.

واستمر العمل على هذا، وظهرت المصنّفات في جمع سير الأعلام عامة ورواة الحديث النبوي خاصة؛ وذلك لما يحتاجه أهل العلم من معرفة حال نقلة الأخبار النبوية، وذلك لما ينبني على هذه المعرفة من قبول الأخبار، والتعبد بما فيها لله تعالى، أو رد تلك الأخبار والحذر من اعتبارها ديناً، وسيرد تفصيل للقول في ذلك في حينه في ثنايا هذا البحث.

المبحث الثاني: أهمية دراسة علم التراجم:

إن من دلائل أهمية دراسة علم التراجم بشتى صورة ما يلي:

أولاً: ذكر الله تعالى في القرآن لأخبار بعض الأمم السابقة. قال الجبرتي في كتابه عجائب الآثار: وقد قص الله تعالى أخبار الأمم السالفة في أم الكتاب؛ فقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (سورة يوسف، الآية: ١١١).

وقال شهاب الدين عبدالرحمن المقدسي^(٧): و في كتاب الله تعالى و سنّة رسوله من أخبار الأمم السالفة، وأنبياء القرون الخالفة ما فيه عبر لذوي البصائر، و استعداد ليوم تبلى السرائر، قال الله عزّ وجلّ و هو أصدق القائلين: ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (سورة هود، الآية: ١٢٠)، وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ الدُّرُورُ﴾ (سورة القمر، الآيتان: ٤-٥).

بل قد وردت كلمة القصص في كتاب الله تعالى ٢٥ مرة. وعقب الله تعالى على ذكرها - في أكثر المواضع - بلزوم أخذ العظة والعبرة منها، وأن على العاقل أن يدرك سنّة الله تعالى في الحياة، وحكمته في تدبير الكون. ومما ورد ذكره من ذلك ما يلي:

(أ): أخبار أنبياء الله تعالى ورسوله ومواقف أقوامهم، فقد تكرر ذكر بعض أخبارهم وتفصيلها، وكل ذلك لحكم أرادها الله تعالى.

(ب): أخبار بعض عباد الله الصالحين الذين ليسوا رسلاً، ولكنهم عباد كان لهم دورهم في الدعوة ورفع راية الحق، والدفاع عن القيم والمثل، ومناصرة الأنبياء والرسول؛ ومن أمثلة ذلك:

١- الرجل المؤمن من قوم فرعون الذي كان يكتُم إيمانه، وقد فصلّ الله تعالى موقفه وشهادته ومناصرتَه لنبيّ الله موسى عليه السلام تفصيلاً دقيقاً، كما في سورة غافر الآيات: (٢٨-٤٦).

٢- ومن ذلك خبر الفتية؛ أصحاب الكهف، وفيه يقول الله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُو مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا.....﴾ (سورة الكهف، الآيات: ١٣-٢٦).

(ج): أخبار بعض الطغاة والظالمين والجبابرة والمستكبرين؛ كفرعون وهامان والنمرود، ومواقفهم من أنبياء الله تعالى ورسوله، وما كان من عنادهم واستكبارهم، وعظيم حلم الله تعالى بهم، وشدة حكمه فيهم جلّ وعلا، و مثل قصة ابني آدم عليه السلام.

(د): أخبار الغزوات التي خاضها النبيّ صلى الله عليه وسلم وأصحابه، ومواقف الإيمان التي كانت في عهد النبوة الزاهر، وبيان مواقف الصادقين، ومدح الله تعالى لهم، ومواقف المبطلين،

٧- شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي الدمشقي، كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، تحقيق: إبراهيم الزبيق، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٩٧م: ٢٣/١.

وفضح الله تعالى لهم، فمن ذلك ما كان من ذكر الله تعالى لمواقف غزوة بدر كما في سورة الأنفال وغيرها، ومواقف غزوة أحد كما في سورة آل عمران وغيرها، ومواقف غزوة الأحزاب كما في سورة الأحزاب، ومواقف غزوة حنين كما في سورة الأنفال، ومواقف فتح مكة كما في سورة الفتح وغيرها. (هـ): أخبار عن مواقف أهل النفاق والضلال، ومكرهم وكيدهم، وما توعدهم الله تعالى به، ومآل النفاق وأهله، وحكم الله تعالى فيهم.

(و): أخبار عن مواقف الكافرين والمعاندين من كفار قريش وغيرهم، فمن ذلك ما حكاه الله تعالى عن كفار قريش خاصة، ومواقفهم من الدعوة، ومواقفهم من النبي صلى الله عليه وسلم الذي كان مؤتمناً عندهم قبل أن يبعثه الله تعالى، ثم كيف تنكبوا عنه، واتهموه صلى الله عليه وسلم، بعد أن أوحى الله إليه بهذا الدين.

إلى غير ذلك من المواقف والأنباء الكثيرة التي امتلأ بها كتاب الله تعالى، لحكم عظيمة لعل من أهمها بيان أهمية التذكير بسير الغابرين وأخبار السالفين، وأن ذلك أساس قوي تعتمد عليه الدعوة إلى الدين الحق؛ وهو أن ينطلق الناس في إيمانهم وقناعاتهم من خلال مُثُلٍ حَيَّةٍ، ومواقف حادثة عبر الزمان.

ثانياً: ومن دلائل الأهمية أنه جاء الأمر في كتاب الله تعالى لنبي الهدى صلى الله عليه وسلم أن يستعمل القصص والأخبار في دعوة الناس إلى الحق والإيمان كما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَأَقْصُصِ الْقِصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (سورة الأعراف، الآية: ١٧٦) وقوله تعالى: ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنِي آدَمَ بِالْحَقِّ﴾ (سورة المائدة، الآية: ٢٧) وقوله جلّ وعلا: ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ...﴾ (سورة المائدة، الآية: ٢٧، سورة الأعراف، الآية: ١٧٥، سورة يونس، الآية: ٧١، سورة الشعراء، الآية: ٦٩)، جاء في أربع آيات مباركات، فهو توجيه رباني للاستفادة من هذا العلم في التربية والتوجيه.

ثالثاً: ومنها ما كان من سنة النبي صلى الله عليه وسلم فيما يذكره من سير بعض الأمم السابقة، كبنِي إسرائيل وقوم إبراهيم وقوم صالح وغيرهم. يقول الجبرتي^(٨): "وجاء من أحاديث سيّد المرسلين كثير من أخبار الأمم الماضية؛ كحديثه عن بني إسرائيل، وما غيره من التوراة والإنجيل، وغير ذلك من أخبار العجم والعرب مما يقضى بمتأمله إلى العجب". فمن أمثلة ذلك ما ذكره صلى الله عليه وسلم

من خبر النفر الثلاثة الذين آواهم المبيت إلى غار^(٩)، وخبر التائب قاتل المائة^(١٠)، وخبر الغلام المؤمن^(١١)؛ غلام الأخدود، وخبر الأقرع والأبرص^(١٢)، وغير ذلك من القصص النبوي الذي ظهر أثره في الدعوة إلى الله تعالى، واستبان اعتناء النبي صلى الله عليه وسلم به؛ من خلال ما نراه من مصنّفات في ذكر القصص النبوي؛ يقول الإمام شهاب الدين المقدسي^(١٣): حدث النبي صلى الله عليه وسلم بحديث أمّ زرع وغيره، مما جرى في الجاهلية والأيام الإسرائيلية، وحكى عجائب ما رآه ليلة أسري به وعرج، و قال فيما رواه البخاري وغيره^(١٤) عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه: "حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج". وفي صحيح مسلم وغيره^(١٥) عن سماك بن حرب، قال: قلت لجابر بن سمرة:

- ٩- فيه حديث عبدالله بن عمر رضي الله عنهما في صحيح البخاري، كتاب البيوع، باب إذا اشترى شيئاً لغيره بغير إذنه فرضي، ٤١٢، رقم (٢٢١٥). وفي كتاب المزارعة، باب إذا زرع بمال قوم بغير إذنه وكان في ذلك صلاح لهم، ٤٣٨، رقم (٢٣٣٣)، وفي كتاب الإجارة، باب من استأجر أجيراً فترك أجره، ٤٢٣، رقم (٢٢٧٢). وأخرجه مسلم، كتاب الرقاق. باب قصة أصحاب الغار الثلاثة، والتوسّل بصلاح الأعمال، ١٠٩٦، رقم (٢٧٤٣).
- ١٠- في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، في صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء. باب ٦٦٨، رقم (٣٤٧٠). وأخرجه مسلم، كتاب التوبة. باب قبول توبة القاتل، وإن كثرت، ١١٠٧، رقم (٢٧٦٦).
- ١١- في حديث صهيب رضي الله عنه، في صحيح مسلم، كتاب الزهد والرقائق. باب قصة أصحاب الأخدود والساحر والراهب والغلام، ١٢٠١، رقم (٣٠٠٥).
- ١٢- في حديث أبي هريرة رضي الله عنه، في صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث أبرص وأعمى وأقرع في بني إسرائيل، ٦٦٦، رقم (٣٤٦٤). وأخرجه مسلم، كتاب الزهد والرقائق، ١١٨٩، رقم (٢٩٦٤).
- ١٣- المقدسي، كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٢٥/١.
- ١٤- صحيح البخاري، كتاب الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، ٦٦٦، رقم ٣٤٦١، وفي جامع الترمذي، كتاب العلم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب ما جاء في الحديث عن بني إسرائيل، ٤٣٢، رقم ٢٦٦٩، قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح، وفي صحيح ابن حبان، ذكر الإباحة للمرء أن يحدث عن بني إسرائيل وأخبارهم، ١٤٩/١٤، رقم ٦٢٥٦.
- ١٥- صحيح مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل الجلوس في مصلاه بعد الصبح وفضل المساجد، ٢٦٣، رقم ٦٧٠، وكتاب الفضائل، باب تبسمه صلى الله عليه وسلم وحسن عشرته، ١٨١٠، رقم ٢٣٢٢، وفي جامع الترمذي، كتاب الأدب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب ما جاء في إنشاد الشعر، ٤٥٦، رقم ٢٨٥٠، قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح، وفي صحيح ابن حبان كما في الإحسان، ذكر الإباحة للمرء أن يتحدث بأسباب الجاهلية وأيامها، ١٥٣/١٤، رقم ٦٢٥٩.

أكنت تجالس رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال: نعم. كثيراً. كان لا يقوم من مُصلاً الذي يصلي فيه الصبح أو الغداة حتى تطلع الشمس. فإذا طلعت الشمس قام. وكانوا يتحدثون. فيأخذون في أمر الجاهلية. فيضحكون ويتبسم... قال: قلت: ولم يزل الصحابة و التابعون فمن بعدهم يتفاوضون في حديث من مضى، ويتذكرون ما سبقهم من الأخبار وانقضى، ويستنشدون الأشعار، ويتطلبون الآثار والأخبار، وذلك بين من أفعالهم لمن اطلع على أحوالهم، وهم السادة القدوة فلنا بهم أسوة. ا.هـ. وما القصص النبوي إلا صورة من صور التراجم للأعلام والتعريف بأصحاب السير والأخبار، ولن أطيل بتفصيل المقال في هذا بأزيد مما ذكرت.

رابعاً: ومن دلائل الأهمية عناية علماء الأمة بهذا الفن خاصة، ويكتب التاريخ عامة، وإن ما سطرته أيدي علماء الأمة من مصنّفات متنوعة في هذا الباب؛ لدليل واضح على أهميته، وعظم الحاجة إليه، ويكفي في بيان ذلك ما أسلفت ذكره عند بيان أقوال الأئمة في أهمية هذا العلم أول هذا المبحث، يقول الإمام الشافعي رحمه الله تعالى: من علم التاريخ زاد عقله. ا.هـ. ولعل نظرة سريعة إلى مدونات الإسلام، تبيّن لنا مكانة هذا العلم، ومدى العناية به من خلال النظر فيما دون من كتب في التواريخ والتراجم والسير، وأنواع التصنيف في ذلك، والتي منها ما هو متعلّق بالخاص ومنها ما هو متعلّق بالعام، ومنها ما كان ترجمة لعلم أو لأعلام، ومنها ما كان مختصاً بأهل تخصص أو طبقة أو بلد، وغير ذلك من أنواع التصنيف الكثيرة التي سيأتي العرض لجوانب منها في مباحث لاحقة.

المبحث الثالث: من فوائد دراسة تراجم الرواة والأعلام:

علم التراجم والسير علم له قيمته وقدره، وله من الثمار والفوائد الشيء الكثير، ولعلنا نعرض لذكر بعض من ثماره وفوائده، إذ فوائده لا تحصر؛ كما قال الإمام ابن الأثير رحمه الله في مطلع كتابه الكامل في التاريخ^(١٦)؛ عندما عرض لذكر فوائد الكتابة في التاريخ فقال: إن فوائدها كثيرة ومنافعها الدنيوية والأخروية جمة غزيرة، وها نحن نذكر شيئاً مما ظهر لنا فيها، ونكل إلى قريحة الناظر فيه معرفة باقيها. ا.هـ. وقال الناصري رحمه الله في مقدّمة كتابه الاستقصاء^(١٧): فائدة التاريخ ليست محصورة فيما ذكرناه، بل له فوائد أخر جلييلة لو قيل بعدم حصرها ما بعد.

١٦- محمد بن محمد بن عبد الواحد ابن الأثير الشيباني، الكامل في التاريخ، تحقيق: أبي الفداء عبد الله

القاضي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط/٢، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م: ٩/١ - ١٠.

١٧- أبو العباس الناصري أحمد بن خالد، كتاب الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق: جعفر

الناصرى و محمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، ط/١، ١٩٩٧م، ص ٦٠.

فهو علم غزير الفائدة عظيم العائدة، بيّن المولى العظيم سبحانه وتعالى في كتابه شيئاً من فوائده، وأكد النبي المصطفى الكريم صلى الله عليه وسلم في سنته على عدد من ثمرات عوائده، ولسنا نستقصي كل ما له من فائدة، ولكننا نسعى لجمع ما يسعف به الذهن والخاطر، وما يعرض له ذكر في دواوين الإسلام وغيرها من المصادر.

فمن الفوائد:

الأولى: الوقوف على بعض المرويات عن النبي صلى الله عليه وسلم، أو عن غيره، مما يرد في تراجم الصحابة وغيرهم من الرواة، وأعني بذلك أن من الأحاديث والآثار ما لا يمكن الوقوف عليه إلا في كتب التراجم والمسانيد؛ وخاصة حين تكون الرواية لها تعلق قوي وظاهر بحياة العَلَم من الصحابة خاصة أو غيرهم؛ ولعل الناظر في كتاب مثل كتاب الاستيعاب لابن عبد البر، أو المعجم الكبير^(١٨) للإمام الطبراني، يدرك معنى ما أردت هنا.

الثانية: معرفة حال الرواة، قوّة وضعفًا، واستقامة وبعداً، وديانة وخبثاً، وقبولاً ورداً، وما ينبني على ذلك من معرفة الأدلة النبوية، ودرجتها من حيث القبول والرد، وهذا باب واسع جداً ومصنّفاته كثيرة كذلك، وسيكون للحديث عن علم التراجم عند المحدثين، وقيّمته في باب الرواية - إن شاء الله تعالى - مبحث مستقل. قال أبو نعيم^(١٩): الاجتهاد في التمييز بين صحيح الأخبار وسقيم الآثار... وذلك متعذرٌ إلا بمعرفة الرواة، والفحص عن أحوالهم وأديانهم، والكشف والبحث عن صدقهم وكذبهم، وإتقانهم وضبطهم، وضعفهم ووهائهم وخطئهم؛ وذلك أن الله عزّ وجلّ جعل أهل العلم درجات، ورفع بعضهم على بعض، ولم يرفع بعضهم إلا وخصّ من رفعه عمّن دونه بمنزلة سنّية، ومرتبة بهية، فالمراتب المنازل منه مواهب، اختصم بها دون الآخرين، فلذلك وجب التمييز بينهم، والبحث عن أحوالهم، ليُعطي كل ذي فضل فضله، ويُنزّل كل واحد منهم منزلته التي أنزله بها الممتن عليه والمنعم لديه.

١٨- صدر الإمام الطبراني في معجمه الكبير أحاديث كل راوٍ من الرواة غالباً بمرويات تتعلق بسيرة الراوي من الصحابة رضي الله عنهم وفضله.

١٩- أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد الأصبهاني، كتاب الضعفاء، تحقيق: فاروق حمادة، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط/١، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٤م، ص ٤٥.

وفي تاريخ بغداد^(٢٠) للخطيب قال: قال أبو حسان الزياتي: سمعت حماد بن زيد يقول: لم يستعن على الكذابين بمثل التاريخ؛ نقول للشيخ سنة كم ولدت؟ فإذا أقرّ بمولده عرفنا صدقه من كذبه، قال أبو حسان: فأخذت في التاريخ، فأنا أعلمه من ستين سنة.

قال ابن حبان^(٢١) في معرض كلامه حول حديث^(٢٢): "من حدّث عني بحديث يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين"، قال: "فكل شك فيما يرفع أنه صحيح أو غير صحيح داخل في ظاهر خطاب هذا الخبر، ولو لم يتعلّم التاريخ وأسماء الثقات والضعفاء، ومن يجوز الاحتجاج بأخبارهم ممن لا يجوز، وكان الواجب على كل من ينتحل السنن أن لا يُقصر في حفظ التاريخ حتى لا يدخل في جملة الكذبة على رسول الله صلى الله عليه وسلم".

وذكر ابن عدي^(٢٣): "عن سفیان الثوري قوله: لما استعمل الرواة الكذب استعملنا لهم التاريخ".

إلى غير ذلك من النقول والأقوال الدالة على أهمية هذه الخطوة الرئيسية عند أهل الحديث.

الثالثة: معرفة آثار بعض الأئمة وتأثيرهم، وذلك من خلال النظر في مصنّفاتهم وأقوالهم، ومدى تأثيرهم بشيوخهم وتأثيرهم في تلاميذهم. قال عبد القادر القرشي في طبقات الحنفية^(٢٤): "الفائدة الثانية في معرفة مناقبهم وأحوالهم فتتأدّب بأدابهم ونقتبس من محاسن آثارهم. فآثار أولئك الأعلام ثروة للاستفادة والاقتباس، ومدرسة للاعتبار والخبرة بالحياة.

الرابعة: ومنها أهمية القصص وأخبار الغابرين في تأسيس العقيدة في النفوس، حيث إن الله تعالى خاطب نبيّه صلى الله عليه وسلم في القرآن العظيم، وما نزل منه بمكة - شرفها الله تعالى -

-
- ٢٠- أبو بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، دار الكتب العلمية، بيروت: ٣٥٧/٧.
- ٢١- محمد بن حبان البستي، كتاب المجروحين، تحقيق محمود إبراهيم زايد، دار الوعي، حلب: ٧/١.
- ٢٢- أخرجه مسلم في صحيحه، المقدمة، باب وجوب الرواية عن الثقات وترك الكذابين، والتحذير من الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ٢١، من حديث المغيرة بن شعبة، وسمرة بن جندب رضي الله عنهما. وأخرجه الترمذي، كتاب العلم، باب ما جاء في من روى حديثاً وهو يرى أنه كذب. ٤٣١، رقم (٢٦٦٢)، وقال: هذا حديث حسن صحيح.
- ٢٣- عبدالله ابن عدي الجرجاني، كتاب الكامل في ضعفاء الرجال، تحقيق: يحيى مختار غزاوي، دار الفكر، بيروت، ٣/٣، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م: ١٦٤/١.
- ٢٤- ابن أبي الوفاء القرشي عبد القادر، كتاب الجواهر المضية في طبقات الحنفية، مير محمد كتب خانة، كراتشي: ٦/١.

خاصة، بكثير من القصص، وأخبار الأمم السالفة، يقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ الدُّرُورُ﴾ (سورة القمر، الآيتان: ٤-٥). وذلك لما للقصة من الأثر، وتبدو أهمية القصة بشكل أكبر في تربية الناشئة وخطابهم؛ والمواقف والآثار المذكورة في التراجم، ما هي إلا قصص تشنق النفوس لسماعها، وتطرب القلوب لمعرفة انتهائها، فتنضم تلك التراجم سير الصالحين وأخبار المنتجين، ومواقف المجاهدين، والحاجة لمثل هذه الأمثلة والنماذج والقذوات ظاهرة؛ إذ يعاني شباب المسلمين اليوم وفتياتهم من غياب القدوة الصالحة، فيحرص الربون على حكاية أخبار الصالحين، لمحاكاتهما، والتأسي بهم فيها، والافتداء بهم، ويكفي دلالة على عظم ذلك وفائدته، قول الحق تبارك وتعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (سورة يوسف، الآية: ١١١). وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ . إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ (سورة هود، الآيات: ١٠٢-١٠٣)، ويقول جلّ وعلا: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ الدُّرُورُ﴾ (سورة القمر، الآيات: ٤-٥). يقول الإمام القرطبي (٢٥): اقتص علينا ما علم أن بنا إليه حاجة، وسكت عما سوى ذلك؛ وذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ﴾ أي جاء هؤلاء الكفار من أنباء الأمم الخالية ﴿مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾ أي ما يزرهم عن الكفر لو قبلوه.

ولنستعرض بعضاً من أقوال العلماء في هذه المسألة؛ يقول الإمام ابن الجوزي رحمه الله تعالى (٢٦)، في معرض ذكره لفوائد علم التاريخ: "أنه إن ذكرت حازم ووصفت عاقبة حاله، علمت حسن التدبير واستعمال الحزم، وإن ذكرت سيرة مفرط وعاقبته، خويت من التفريط، فيتأدب المتسلط، ويعتبر المتذكر". ويقول ابن الأثير رحمه الله تعالى في مقدمة تاريخه (٢٧): "ومنها أن الملوك ومن إليهم الأمر والنهي، إذا وقفوا على ما فيها من سيرة أهل الجور والعدوان، ورأوا مدونة في الكتب يتناقلها

٢٥- القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: ١٧/١٢٨.

٢٦- ابن الجوزي أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، تحقيق: محمد ومصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط/١، ١٤١٢هـ-١٩٩٢م: ١١٥/١.

٢٧- ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٩/١.

الناس، فيرويهما خلف عن سلف، ونظروا إلى ما أعقبت من سوء الذكر، وقبيح الأحدث، وخراب البلاد وهلاك العباد، وذهاب الأموال وفساد الأحوال، استقبحوها وأعرضوا عنها وطرحوها، وإذا رأوا سيرة الولاة العادلين وحسنها، وما يتبعها من الذكر الجميل بعد ذهابهم، وأن بلادهم وممالكهم عمرت، وأموالها درّت، استحسّنوا ذلك ورغبوا فيه، وثابروا عليه وتركوا ما ينافيه، هذا سوى ما يحصل لهم من معرفة الآراء الصائبة، التي دفعوا بها مضرّات الأعداء، وخلصوا بها من المهالك، واستصانوا نفائس المدن، وعظيم الممالك، ولو لم يكن فيها غير هذا لكفى به فخراً. ويقول بعد ذلك: ومنها ما يحصل للإنسان من التجارب والمعرفة بالحوادث، وما تصير إليه عواقبها، فإنه لا يحدث أمر، إلا وقد تقدّم هو أو نظيره، فيزداد بذلك عقلاً.

وفي عجائب الآثار^(٢٨): "يعتبر المطلع على الخطوب الماضية، فيتأسى إذا لحقه مصاب، ويتذكّر بحوادث الدهر؛ إنما يتذكّر أولو الألباب...". وقال: "وفائدته العبرة بتلك الأحوال، والتنصح بها، وحصول ملكة التجارب بالوقوف على تغلّبات الزمن، ليتحرّز العاقل عن مثل أحوال الهالكين من الأمم المذكورة السالفين، ويستجلب خيار أفعالهم، ويتجنّب سوء أقوالهم، ويزهد في الفاني، ويجتهد في طلب الباقي. اهـ. إلى غير ذلك من أقوال للعلماء كثيرة في هذا المعنى، فهو صفحة الأيام لمن حرص على قراءتها والاستفادة منها.

الخامسة: ومن الفوائد، ما يحصل بذلك من تذكّر الأعلام الصالحين، ومعرفة سيرهم وأخبارهم ومواقفهم، وأثرهم في حفظ دين الأمة ومكانتهم التي حازوها في هذه الحياة، بسبب عملهم بطاعة الله تعالى، وعند ذلك تلهج الألسن بالدعاء لهم، وشكر صنيعهم، وفاء لهم، واعترافاً بفضلهم، يقول السخاوي رحمه الله تعالى^(٢٩): "من المعلوم المقرّر عند أولي العقول الصحيحة وثاقب الفهوم، أنه عند ذكر الصالحين تنزل الرحمة، ويتتبع آثارهم يندفع كل بلاء ونقمة، وأن الثناء على المدرج فيهم من الأموات رحمة للأحياء من أهل المودّات، والاشتغال بنشر أخبار الأخيار ولو بتواريخهم من علامات سعادات الدارين؛ لأولي العرفان والاختبار، بل يرجى إسعافهم للمقصر الذّاكر لهم، بالشفاعة وإتحافهم من المولى بمرافقة أهل السنّة والجماعة".

٢٨- الجبرتي، تاريخ عجائب الآثار: ١/٥-٦.

٢٩- شمس الدين السخاوي، التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط/١،

١٩٩٣م: ٤/١.

وأيضاً معرفة قدرهم ومنزلتهم وفضلهم، يقول عبدالقادر القرشي رحمه الله في كتاب الطبقات^(٣٠): "الفائدة الثالثة معرفة مراتبهم وأعمارهم؛ فينزلون منازلهم، ولا يقصر بالمعالي في الجلالة عن درجته، ولا يرفع غيره عن مرتبته". وقال أيضاً: "الفائدة الرابعة أنهم أئمتنا وأسلافنا كالوالدين لنا، وأجددنا في مصالح آخرتنا التي هي دار قرارنا، وأنصح لنا فيما هو أعود علينا، وأقبح علينا أن نجعلهم وأن نهمل معرفتهم. قال موضحاً بعضاً مما يستفاد من معرفتهم: الفائدة الخامسة أن يكون العمل والترجيح بقول أعلمهم وأورعهم إذا تعارضت أقوالهم".

السادسة: ومنها دراسة حياتهم ودقائق سيرهم، ومواقفهم في حماية الدين، والدفاع عن حياض الإسلام والمسلمين، فعند ذلك يتذكر الناظر في ذلك عظم المسؤولية الملقاة على عاتق الأمة في تحمل التركة التي تحملوها، وفي سد الثغرة التي ذهبوا وتركوها، وفي دراية الطريقة التي سلكوها، للتأسي بهم في القيام بهذه المسؤولية، والاضطلاع بهذه المهام الجليلة.. يقول الإمام ابن الأثير رحمه الله تعالى^(٣١): "فأما فوائدها - أي كتب التاريخ - الدنيوية فمنها: أن الإنسان لا يخفي أنه يحب البقاء، ويؤثر أن يكون في زمرة الأحياء، فيا ليت شعري أي فرق بين ما رآه أمس أو سمعه، وبين ما قرأه في الكتب المتضمنة أخبار الماضين، وحوادث المتقدمين، فإذا طالعها فكأنه عاصرها، وإذا علمها فكأنه حاضرهم".

السابعة: ومنها دراسة المواقف التربوية من حياتهم، لتربية النفس وترقيق القلب وزيادة المعرفة وتوجيه الناس، فبعثني المربون والأدباء والكتّاب والمصنّفون في إبراز المواقف التربوية من حياتهم، وتبسيط الضوء على الدروس المستفادة من دراسة أخبارهم، وتوجيه ذلك للناشئة بأسلوب ميسر وواضح، فيكون أقوى في التوجيه، وأبلغ في النصح والتربية. وقد أكد ابن خلدون على أهمية استنطاق الأحداث عبرها، واستمطار المواقف دروسها، فقال في مقدمته^(٣٢) عن بعض الإخباريين: "فيجلبون الأخبار عن الدول، وحكايات الوقائع في العصور الأول، صوراً قد تجردت عن موادها، ومعارف تستنكر للجهل بطرفها وتلاذها... ويغفلون أمر الأجيال الناشئة في ديوانها، بما أعوز عليهم من ترجمانها.... لا يتعرضون لبدايتها، ولا يذكرون السبب الذي رفع من رايته، وأظهر من آيتها، ولا علة الوقوف عند غايتها، فيبقى الناظر متطلعاً بعد إلى افتقاد أحوال مبادئ الدول ومراتبها، مفتشاً عن

٣٠- ابن أبي الوفاء القرشي، الجواهر المضية: ٦/١.

٣١- ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ١٠/١.

٣٢- عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي، مقدمة التاريخ، دار القلم، بيروت، ط/٥، ١٩٨٤م، ص ٥.

أسباب تزامنها أو تعاقبها، باحثاً عن المقنع في تباينها أو تناسبها". إنه توجه عظيم لو حرصت الأمة على تبنيه، لكان لها من سجل التاريخ سجلات عظيمة من الحكمة والدروس، ومن العبرة والوضوح.

الثامنة: ومنها تذكر سنة الله في هذا الكون، وأن ما مرّ بهم، سيمرّ بمن بعدهم، والفتن من وعظّ بغيره، نعم سنة الموت والنقلة من هذه الحياة. هذه السنة الجارية؛ فكل مخلوق إلى الموت سائر، وكل من على وجه البسيطة من الخلائق مودع وبائد، مهما امتدّت به السنون، أو حاز من نعم الدنيا وخيراتها ودورها وأموالها ما حاز، فإن الموت لا بد منه والفتن من وعظ بغيره، وليس من كان عظة لغيره، وعبرة لمن بعده، فكل هؤلاء الأعلام عاشوا على وجه الأرض، ومهما كان حالهم ومكانتهم، وممالكهم وقوتهم؛ فكلهم إلى الموت سائرون، ولموقف الجزاء والحساب في الدار الآخرة ينتظرون. يقول الله سبحانه: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ (سورة الرحمن، الآيتان: ٢٦-٢٧). يقول ابن الأثير رحمه الله تعالى (٣٣): "وأما الفوائد الأخروية فمنها: أن العاقل اللبيب إذا تفكر فيها، ورأى تقلب الدنيا بأهلها، وتتابع نكباتها إلى أعيان قاطنيها، وأنها سلبت نفوسهم وذخائرهم، وأعدمت أصاغرهم وأكابرهم، فلم تبق على جليل ولا حقير، ولم يسلم من نكدها غني ولا فقير؛ زهد فيها، وأعرض عنها، وأقبل على التزوّد للآخرة منها، ورغب في دار تنزهت عن هذه الخصائص، وسلم أهلها من هذه النقائص، ولعل قائلاً يقول: ما نرى ناظراً فيها زهد في الدنيا وأقبل على الآخرة ورغب في درجاتها العليا؟، فياليت شعري كم رأى هذا القائل قارئاً للقرآن العزيز، وهو سيد المواعظ، وأفصح الكلام، يطلب به اليسير من هذا الحطام فإن القلوب مولعة بحب العاجل. ويقول بعد ذلك أيضاً: ومنها التخلق بالصبر والتأسي، وهما من محاسن الأخلاق، فإن العاقل إذا رأى أن مصاب الدنيا لم يسلم منه نبيّ مكرم ولا ملك معظّم، بل ولا أحد من البشر، علم أنه يصيبه ما أصابهم، وينوبه ما نابهم... ولهذه الحكمة وردت القصص في القرآن المجيد... فإن ظن هذا القائل أن الله سبحانه أراد بذكرها الحكايات والأسمار، فقد تمسك من أقوال أهل الزيغ بمحكم سببها، حيث قالوا هذه أساطير الأولين اكتبها".

التاسعة: ومن الفوائد أننا بدراسة هذه السير والتراجم والنظر في صفحات التاريخ نتذكّر أن هناك أجيالاً من الأمم عظاماً، بادت أخبارهم، واندثرت آثارهم، واندرس ذكرهم، ولم يبق إلا ما خلفوه ومن الذكر تركوه، فعني هذا العلم بإبراز أولئك الأعلام، الذين وضعوا لهم في سجلّ التاريخ موطئ قدم.

فأصحاب التراجم والسير هم صنعة التاريخ، وهم أبطال المسيرة، هم من حفظت بسببهم الأخبار، وانطبعت في عقول الناس عنهم المآثر والآثار، فلولا أولئك ما ذكر التاريخ وما دون، وبسبب أخبارهم ارتقت الأمم الحيّة، مستنطقة مواقفهم عبراً، ومستمطرة أخبارهم دروساً.

العاشرة: ومن الفوائد أيضاً التسلية؛ وذلك بذكر بعض القصص والطرائف والعجائب والنوادر، وقد كانت الأخبار والسير، فاكهة مجالس الأمراء والسلاطين والكبراء، وكانت سمرهم وترفيهم، وهي أيضاً سلوة للمغمومين، وتفرج لهم المهمومين، إذ من عرف مواقف الحياة ولأواء الأيام، ومن تذكر أخبار من باد ومضى من الأقوام؛ فإن في ذلك ما يسليه، ويقشع عن خاطره الانغلاق والحزن، ويدعمه بقوة الصبر ومتانة التحمل، ويدعوه للاعتبار بما مضى من الأخبار.

فالله سبحانه وتعالى بيّن لنبيه صلى الله عليه وسلم أنه يقصّ عليه من أنباء السابقين تسلية له وتثبيتاً، كما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَكَلَّا نَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقِّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (سورة هود، الآية: ١٢٠). وذكر المولى الرحيم سبحانه أخبار الأنبياء لنبيّنا محمد صلى الله عليه وسلم ثم قال له سبحانه وتعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (سورة هود، الآية: ٤٩).

يقول الإمام ابن الأثير رحمه الله (٣٤): "ومنها ما يتجمل به الإنسان في المجالس والمحافل، من ذكر شيء من معارفها، ونقل طريفة من طرائفها، فترى الأسماع مصغية إليه، والوجوه مقبلة عليه، والقلوب متأملة ما يورده ويصدره، مستحسنة ما يذكره". وقال السيوطي (٣٥): "والداعي إلى تأليف هذا الكتاب أمور منها أن الإحاطة بتراجم أعيان الأمة مطلوبة، ولذوي المعارف محبوبة".

ولا شك أن أبلغ القطع الأدبية تأثيراً في مجموع الناس، هي ما كانت صياغتها بالأسلوب القصصي المؤثر، ولهذا فإن أسلوب القرآن في التوجيه والتنبيه والتسلية والتأثير، جاء مجتمعاً فيما ذكره الله تعالى من سير الأمم السالفة.

٣٤- ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ١٠/١.

٣٥- السيوطي، تاريخ الخلفاء، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، مصر، ط/١،

١٣٧١هـ - ١٩٥٢م: ٣/١.

الحادية عشرة: أن بعض كتب التراجم والأعلام، عنيت بالنقد لبعض المناهج والملل والأفكار، وذلك من خلال اللّمز برموزها وأعلامها، ودراسة هذه الكتب تستدعي أن يتناولها الدارسون بالتمحيص والتحقيق، والنقد والمناقشة، ودراسة الروايات المشبوهة والملصقة بأعلام الأئمة ورموزها، وتحقيقتها، ودحض ما يثيره أولئك حولها، وتنقية كتب السير والتاريخ من ذلك، وتصحيح الصورة التي يسعى أعداء الأمة لإلصاقها بها وبتاريخها وأعلامها، وبيان واقع الأمة من حيث الإنتاج والحضارة، ورموز العلم والمعرفة، وقيادتها الأمم للرقى الحق، وذلك من خلال القراءة المتأنية للتاريخ وسير الأعلام. وكم شوّه بعض المؤرخين من تواريخ الأمم الكثير، وكم لطخت سير الصالحين من بعض المؤرخين بالتشويه والدسّ والتهجّم والتهكّم، وكم زينت سير أشخاص ضالّين ومفسدين، وأبرزت سيرهم نماذج للمثل التي تحتذى والقذوات التي تقتفى؟! وهذا الأسلوب أسلوب فرعوني قديم، سلكه فرعون مع نبيّ الله موسى عليه الصلاة والسلام، كما حكى الله تعالى ذلك في القرآن العظيم، في قوله جلّ وعلا: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذُرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴾ (سورة غافر، الآية: ٢٦). وقوله تبارك وتعالى: ﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَنْتَرِ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَدَّرْكَ وَالْهَيْكَلُ ﴾ (سورة الأعراف، الآية: ١٢٧).

وهذا الأسلوب قد سلكته كل الأمم مع أنبيائها، فقد اتهم كفار قريش نبيّ الهدى صلى الله عليه وسلم بتهم باطلة يعرفون بطلانها وجورها، ولكن العداوة جعلتهم يصفون من كان عندهم الصادق الأمين قبل البعثة؛ يصفونه صلى الله عليه وسلم بالكاذب (٣٦)، والساحر (٣٧)؛ والمجنون

٣٦- كما في قوله تعالى: ﴿ وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ، أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾ (سورة ص، الآية: ٥).

٣٧- كما قال جلّ وعلا: ﴿ كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴾ (سورة الذاريات، الآية: ٥١). وفي (سورة يونس، الآية: ٢): ﴿ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ ﴾.

وغيرها(٣٨). ولا يزال أعداء الأمة حتى هذا الزمان يصطنعون المواقف، ويحيكون القصص، ويخترعون الكذب لتشويه صورة الصالحين، لينفروا الناس من الحق وأهله، وليصنعوا عقول الناس وفق ما تريده أهواؤهم ورغباتهم، فكم تنكبت وسائل التثقيف بشتى صورها وعلى اختلاف مستوياتها وأشكالها، طريق الحق والعدل والصواب، فوصمت العباد والمصلحين، والدعاة والمجاهدين، والأخيار والحريصين على سنة نبي الهدى صلى الله عليه وسلم، والآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، ينعنونهم بأقذع الأوصاف، وأقبح النعوت، وكم شوّهت صور النساء الطاهرات والعفيفات المتحجّبات بأوصاف قذرة ورسوم تفوح منها رائحة الفرعنة والحقد والغیظ والتهمك، ولكننا نقول كما قال ربنا سبحانه وتعالى: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (سورة البقرة، الآية: ١٣٧). ولهذا فليس كل كلام ورد في كتاب التاريخ مما تتلقاه العقول بالقبول، ولكن لا بد أن يعرف الناظر فيها مناهج أصحابها وتوجهات مؤلفيها، وأهداف تصنيفها، فإن كثيراً من سير العلماء والدعاة والخلفاء قد شوّهت، ونسب لهم من المواقف ما هم منه براء؛ كما هو مشتهر من سيرة الخليفة هارون الرشيد رحمه الله تعالى، فقد امتلأت الكتب المترجمة له بذكر أخباره مع الجوّاري والقيان، ومعاقره الخمر وممازحة المردان، وهو من ذلك براء كما حقّقه العلماء وبين عوارّه ومواطن وضعه أهل التحقيق المخلصون، وأكبر كتاب من هذا الصنف؛ في تراجم أهل فنّ مخصوص، ولقي عناية من الأدباء ظاهرة، بل عدّه بعضهم العمدة التي لا يستغني عنها أي أديب، هو كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني، فهو وإن احتوى على علوم ومعارف؛ إلا أنه سمّ فيه دسم وليس العكس، لأن أصل وضع الكتاب على أساس محرم في دين الله تعالى وهو الغناء، وأصوات المغنّين وألحانهم، وهذا الكتاب قد قرأته، وعلّقت عليه في مواطن كثيرة منه، ووقفت فيه على كفريات وفحش وسفالة في مواطن كثيرة، وحوى تنقصاً ظاهراً لأمر من الدين رئيسة، وقد بينت عوارّه وسمّه، وبذاءته، وضرره في تاريخ الأمة، في بحث بدأت حوله، أسأل الله أن يبسر ظهوره وأن ينفع به.

٣٨- يقول الله عزّ وجلّ: ﴿وَيَقُولُونَ أَيُّنَا لَنَارِكُوا إِلَهَيْنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾ (سورة الصافات، الآية: ٣٦)، وكما في قوله تعالى: ﴿أَتَى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ. ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ﴾. وفي سورة الدخان. وقوله: ﴿فَذَكَّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ. أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمُنُونِ. قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَرَبِينَ﴾، (سورة الطور، الآيات: ٢٩-٣١). وفي (سورة القلم، الآية: ٥١)، يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيَزَلُّوكُمْ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾. وفي (سورة التكويد، الآية: ٢٢) ﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ﴾.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية في كتاب الاستقامة^(٣٩)، بعدما ذكر موقفاً ينسب للإمام أبي عبدالله الشافعي رحمه الله، مبيّناً ضرر هذه المصنّفات ودسّها، وأنها ليست مظنةً للعلم ولا محلاً للثقة: "فهذه الحكاية يعلم أنها مفتراة من له أدنى معرفة بالناس، ولو صحّت عن صحّت عنه لم يكن فيها إلا ما هو مدرك بالإحساس، من أن الصوت الطيّب لذيذ مطرب، وهذا يشترك فيه جميع الناس؛ ليس هذا من أمور الدين حتى يستدل فيه بالشافعي، بل ذكّر الشافعي في مثل هذا غضّ من منصبه، وأهل المواخر أعلم بهذه المسألة من أئمة الدين، ولو حكى مثل هذا عن إسحاق بن إبراهيم النديم، وأبي الفرج الأصبهاني صاحب الأغاني؛ لكان أنسب من أن يحكيها عن الشافعي".

وفي التاريخ^(٤٠) للخطيب بسنده عن: "أبي محمد الحسن بن الحسين النوبختي رحمه الله قال: كان أبو الفرج الأصبهاني أكذب الناس؛ كان يدخل سوق الورّاقين وهي عامرة، والدكاكين مملوءة بالكتب، فيشتري شيئاً كثيراً من الصحف، ويحملها إلى بيته ثم تكون رواياته كلها منها". وقد يكون الدافع لذلك التشويه الحقد على أولئك الأعلام في أشخاصهم، أو بسبب ما يعتنون به من علم ودراية، أو بسبب ما يكون بين الأقران والمتعاصرين من الحسد، أو بسبب العدا للمنهج الذي يدعون له، والمعتقد الذي يحملونه، أو سبب ذلك التعصب الأعمى الذي هو من أعظم الأدواء وأخطرها. يقول ابن خلدون^(٤١): "وإن فحول المؤرّخين في الإسلام قد استوعبوا أخبار الأيام وجمعوها، وسطّروها في صفحات الدفاتر وأدعوها، وخلطها المتطفّلون بدسائس من الباطل وهَمّوا فيها وابتدعوها، وزخارف من الروايات المضعفة لفقوها ووضعوها، واقتفى تلك الآثار الكثير ممن بعدهم واتبعوها وأدوها إلينا كما سمعوها".

الثانية عشرة: ومن الفوائد: أنها من تاريخ الأمم، والتاريخ يصل الماضي بالحاضر، وكما قيل: من لا ماضي له فليس له حاضر، فما من أمة حيّة، إلا ولها صفحات تاريخ تعزّز بها، وتقتات عند الضعف على تذكّرها، وتتلّس فيها مواقف الاعتبار ومواطن الاعتزاز، وترى أنها شخصيتها التي تؤكد هويتها ووجودها.

٣٩- شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني أبو العباس، كتاب الاستقامة، تحقيق: محمد رشاد

سالم، الناشر: جامعة الإمام محمد بن سعود، المدينة المنورة، ط/١، ١٤٠٣هـ: ٣٣٨/١.

٤٠- الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد: ٣٩٨/١١.

٤١- ابن خلدون، المقدمة، ص ٤.

الثالثة عشرة: ومنها: أن القراءة في كتب التراجم، تطلعتنا على صور لجوانب كثيرة من الحركة الفكرية في بلاد الإسلام وتطورها عبر السنين، لأن الإنسان هو محور الحركة وهو العامل المؤثر في تطور الفكر سلباً وإيجاباً، فالنظر في كتب التراجم يبرز هذا الجانب، ويظهر الواقع الذي كانت عليه الأمة، فتعرف مواطن الضعف والقوة، ومراحل الرفعة والدونية، وإدراك أسبابها، للاعتبار بها والاستفادة منها.

الرابعة عشرة: ومنها: أن يدرس علم التراجم للإفادة منه في جانب من جوانب علوم الحديث النبوي خاصة؛ من التفرقة و التمييز بين الأسماء المتشابهة، وما يترتب على الجهل بها من ضرر يلحق بالناظر في الحديث أو يلحق صاحب الترجمة؛ كما حصل للإمام محمد بن جرير الطبري رحمه الله تعالى؛ حيث تشابه في اسمه مع آخر هو: محمد بن جعفر بن رستم الطبري، صاحب كتاب دلائل الإمامة، وهو رافضي، تشابه مع ابن جرير المفسر في الاسم واسم الأب والنسبة والوفاة مكاناً وزماناً، مما أدى لاتهام المفسر ابن جرير باتهامات هو منها براء، كما قال د. محمد الزحيلي في ترجمته للمفسر أبي جعفر رحمه الله: فالقراءة في كتب التراجم تعين على تصحيح هذا الفهم الخاطئ^(٤٢).

الخامسة عشرة: ومن فائدته كذلك ما ذكره الإمام السخاوي رحمه الله في مقدّمة كتابه الإعلان بالتوبيخ لمن ذمّ التاريخ، قال: "وأما فائدته - أي علم التاريخ - فمعرفة الأمور على وجهها". أي أنا نعرف حال الراوي على حقيقته، أو في أقل الأحوال على الصورة الأقرب في التعريف به. وأيضاً نتمكن من معرفة من أحدث من الأعلام توبة بعدما كان عليه من معصية وإعراض، وبعد أن يكون قد خاض فيما خاض فيه من إعراض، فيترحم عليه ويعلم براءته، وأنه قد تبرأ من بعض ما ترك من كتبه مخالفاً فيه الصواب... فيذكر له رجوعه، وما ذهب إليه من التحقيق أو التوبة.

السادسة عشرة: ومنها الاطلاع على تأثير النواحي السياسية والاجتماعية والعقدية والاقتصادية على أعلام كل عصر، ومدى تأثيرهم فيها وتأثرهم بها، ويؤخذ من ذلك ضرورة الاحتراز من المؤثرات الخارجية، وأن يحرص العاقل على الاعتزاز بما لديه من الحق، وعدم الانبهار بمؤثرات الواقع، ولا بالصوارف عن الحق والنور، وما أحوج الأمة اليوم وفي إعلامها خاصة، إلى دراية هذه القضية، وتحمل هذه المسؤولية.

السابعة عشرة: ومنها إدراك سنن الله تعالى في الكون، وذاك مهم وضروري لمعرفة الحاضر واستشراف المستقبل، واكتشاف السنن والقوانين الفاعلة في العمران البشري، وما لله جل وعلا من حكم بالغة وسنن سائرة، وتدبير حكيم، وأن سنته سبحانه لا تتخلف، وإنما هي سائرة وفق إرادته، سواء كان ذلك في نصرته لمن ينصر دينه، أم كان ذلك في انتقامه ممن كذب وطغى، وأعرض واستكبر، يقول الله تعالى: ﴿ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكذِّبِينَ. هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (سورة آل عمران، الآيتان: ١٣٧-١٣٨).

الثامنة عشرة: ومنها إدراك أن العلم بهذا الدين، والفقهاء في شريعة رب العالمين، واستنباط الأحكام من الأصولين، كل ذلك ممكن في كل العصور، وأن إدراك ذلك قائم لدى الأولين والآخرين، وأن الأول ترك للآخر الكثير، وذلك مهم حتى لا تخور الهمم، وحتى لا تعرض الأمة عن الأخذ بأقوال معاصريها من الأئمة والعلماء، الذين فاقوا بعض علماء القرون الأولى، بعلمهم وصلاحهم واجتهادهم، وقوة حججهم، وبلغ أثرهم في العلم أو الدعوة أو الجهاد ونحو ذلك، يقول الإمام الشوكاني رحمه الله تعالى (٤٣): "وبعد فإنه لما شاع على ألسن جماعة من الرعايا، اختصاص سلف هذه الأمة بإحراز فضيلة السبق في العلوم دون خلفها، حتى اشتهر عن جماعة من أهل المذاهب الأربعة تعدد وجود مجتهد بعد المائة السادسة، كما نقل عن البعض أو بعد المائة السابعة، كما زعمه آخرون، وكانت هذه المقالة بمكان من الجهالة لا يخفى على من له أدنى حظ من علم، وأنزى نصيب من عرفان، وأحق حصاة من فهم؛ لأنها قصر للفضل الإلهي والفيض الرباني على بعض العباد دون البعض، وعلى أهل عصر دون عصر وأبناء دهر دون دهر، بدون برهان ولا قرآن، على أن هذه المقالة المخذولة، والحكاية المزدولة، تستلزم خلو هذه الأعصار المتأخرة، عن قائم بحجج الله و مترجم عن كتابه وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، ومبين لما شرعه لعباده، وذلك هو ضياع الشريعة بلا مرية، وذهاب الدين بلا شك، وهو تعالى قد تكفل بحفظ دينه، وليس المراد حفظه في بطون الصحف والدفاتر؛ بل إيجاد من يبينه للناس في كل وقت، وعند كل حاجة، حداني ذلك إلى وضع كتاب يشتمل على تراجم أكابر العلماء... صاحب تلك المقالة أن الله وله المنة، قد تفضل على الخلف كما تفضل على السلف، بل ربما كان في أهل العصور المتأخرة من العلماء المحيطين بالمعارف العلمية، على اختلاف أنواعها؛ من يقل نظيره من أهل العصور المتقدمة".

الخاتمة:

ونختم هذا البحث بالتذكير بأهمية مثل هذه الدراسات، والحاجة المعاصرة لإيضاح هذه الجهود المباركة لعلماء الأمة، وقد خلصت إلى نتائج مهمة حول ذلك أحببت إيجازها هنا؛ فمن ذلك:

١- أن علوم الإسلام مترابطة، وعناية الأمة بها كانت موزعة بين أصنافها، بل كان العلماء يعتنون بأن يكون لدى الواحد منهم دراية بجلّ العلوم، فتجد أنهم في بدايات حياتهم العلمية يحرصون على دراسة عدد منها بدءاً من القرآن العظيم وحفظه، ودراية شيءٍ من تفسيره، ومروراً بالسنة والعناية بها وبأصولها، وأخذاً بجوانب من العلوم الأخرى كالفقه والقراءات والنحو والتاريخ والسير والأدب وغيرها.

ولهذا فإن هذا الترابط هو الذي جعل علم التراجم، وهو جزءٌ من التاريخ خادماً لعلم السنّة ومعرفة الحديث النبوي، ولا يستغني عنه عالم بالشريعة كالفقه والتفسير وغيرها.

٢- لعل ما تقدّم من الكلام عن نشأة علم التراجم، وأنه قديم قدم الإنسان في هذه الأرض، من دلائل قيمته العلمية ومكانته الإنسانية، وأنه ليس قاصراً على أمة العرب ولا الإسلام، وإنما هو علم إنساني قديم قدم الإنسان، ولم أقف على من أشار إلى هذه الحقيقة، فيما أعلم.

٣- ينبغي أن لا يغيب عن ذهن الناظر في حياة البشر وفي كتب التراجم، الطبيعة البشرية والإنسانية للمتترجمين، فلا يطلب منهم أكثر من طاقتهم البشرية، ولا يظن بهم العجز والضعف لقدم العهد أو قلة ذات اليد أو ضعف الإمكانيات؛ ولهذا لا يقدر بشرٌ بسبب قوته أو صلاحه، ولا يرفع فوق منزلته البشرية، وأيضاً لا يحتقر إنسان لأي سبب كان، وذلك لأنه بشر يتصف بخواص البشر من القوة والضعف، ومن العجز والهمة، ومن العلو والنزول، ومن التوفيق أو الخذلان.

٤- عناية القرآن الكريم بهذا العلم ظاهرة من خلال الآيات القرآنية الكثيرة التي تحكي سير أعلام صالحين وآخرين من الطغاة والمفسدين، وما احتواه الكتاب العزيز من حياة أمم ودور صالحيتها في ذلك، ومن هلاك أمم وسبب الهلاك الذي أصابها بسبب مترفيها وطغاتها.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.
